رسائل تلّغرافيّة
(١٥)

# حديث
# «زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن»
# دراية ورواية

بَلَّغَهُ
الدكتور ابن الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيَّ بعده ﷺ، **أما بعد**:

فقد روىٰ الحاكم في «المستدرك» **(٢٠٩٨-٢١٢٩)** ثنتين وثلاثين حديثًا بطرقه، وقال: صحيح، ووافقه الذهبي، وابن ماجه في «سننه» **(١٣٤٢)**، وأبو داود في «سننه» **(١٤٦٥)**، والنسائي في «الصغرىٰ» **(١٠١٤، ١٠١٥)**، والبخاري في «خلق أفعال العباد» حديث **(١٩٥)**، وأحمد في «المسند» **(١٨٤٠٥)**، والدارمي في «سننه» **(٣٥٠٠)**، وذكره البخاري معلّقًا في كتاب التوحيد قبل حديث **(٧٥٤٤)**، قال ابن حجر في «فتح الباري» **(١٣/ ٥٧١)** بعد ذكر روايات الحديث موصولًا: «. . . وعن ابن عباس أخرجه الدارقطني في «الأفراد» بسند حسن»، وابن خزيمة في «صحيحه» **(١٥٥١)**، وابن حبان في «صحيحه» **(٧٤٩)**، **(٧٥٠)** من حديث البراء بن عازب، وابن عباس، وأبي هريرة، وعبد الرحمن بن عوف قال رسول اللَّه ﷺ: «**زيّنوا القرآن بأصواتكم**» كلهم بهذه اللفظة، ورواه الحاكم في «المستدرك» **(٢٠٩٩)** في رواية بلفظ: «**زيّنوا أصواتكم بالقرآن**».

وقال الحاكم: «هكذا رواه زائدة بن قدامة، وعمرو بن أبي قيس، وجرير بن عبد الحميد، وعمار بن محمد، وإبراهيم بن طهمان، عن منصور بن المعتمر». اهـ

وذكر السيوطي في «الجامع الصغير» **(٤٥٧٦، ٤٥٧٧)** وصححهما.

**قال المُناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٤/ ٨٨، ٨٩):**

«قوله: «**زيّنوا**» من التزيين بما منه الزينة، وهي بهجة العين أو غيرها من الحواس التي لا تخلص إلىٰ باطن المزيّن، ذكره الحرالي. «**القرآن بأصواتكم**»؛ أي: زيّنوا أصواتكم به، كما دل عليه الحديث الآتي عقبه -وهو: «**زيّنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسْنًا**»-. فالزينة للصوت لا للقرآن، فهو علىٰ القلب، كعرضة الإبل علىٰ الحوض، وأدخلت القلنسوة في رأسي، ذكره البيضاويّ، يعني: زيّنوا أصواتكم بالخشية للَّه حال القرآن، يرشد إلىٰ قول السائل: من أحسن صوتًا بالقرآن يا رسول اللَّه؟ قال ﷺ: «**من إذا سمعته رأيته أنه يخشىٰ اللَّه**» [ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (**٢٥٢**) وضعفه، ونقل المناوي في «الفيض» قول ابن أبي حاتم: «ولكن بتعدد طرقه يتقوىٰ فيصير حسنًا»، ونقل قول الهيثمي في «مَجْمَع الزوائد»: «رجاله رجال الصحيح»].

وقيل: بل هو حَثّ علىٰ ترتيله، ورعاية إعرابه، وتحسين الصوت به، وتنبيه علىٰ التحذير من اللحن والتصحيف، فإذا قرئ كذلك كان أوقع في القلب، وأشد تأثيرًا، وأروق لسماعه، وسمّاه تزيينًا؛ لأنه تزيين للفظ والمعنىٰ، وقيل: أي: الْهَجوا بقراءته واشغلوا أصواتكم به، واتخذوه شعارًا وزينة لأصواتكم، قوله: «**فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسنًا**» [وهي الرواية الثانية للسيوطي]، وفي أدائه بحسن الصوت وجوْدة الأداء بعث للقلوب علىٰ استماعه وتدبّره والإصغاء إليه.

قال التوربشتي: هذا إذا لم يُخْرِجْه التغنّي عن التجويد، ولم يصرفه عن مراعاة النظم في الكلمات والحروف، فإن انتهىٰ إلىٰ ذلك عاد الاستحباب كراهة، وأمّا ما أحدثه المتكلفون بمعرفة الأوزان والموسيقىٰ، فيأخذون في كلام اللَّه مأخذهم في

التشبيب والغزَل، فإنه من أسوأ البدع، فيجب علىٰ السامع: النكير، وعلىٰ التالي: التعزير». اهـ

**وقال ابن حجر في «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» (١٣/ ٥٧١):**

«قال ابن بطال: المراد بقوله: «**زيّنوا القرآن بأصواتكم**»: المدّ، والترتيل، والمهارة في القرآن: جودة التلاوة بجودة الحفظ، فلا يتلعثم، ولا يتشكك، وتكون قراءته سهلة بتيسير اللَّه تعالىٰ، كما يسّره علىٰ الكرام البررة». اهـ

**قلت**: وكذلك روىٰ عبد الرزّاق الصنعاني (٤١٧٦) في «مصنفه» هذا الحديث بالرواية الثانية بلفظ: «**زينوا أصواتكم بالقرآن**» من حديث البراء بن عازب أيضًا، مع الرواية الأكثر، وقد صحح هذه الرواية الخطابي في «المعالم».

**قال الإمام أبو سليمان الخطَّابي في «معالم السنن شرح سنن أبي داود» (١/ ٢٥٢):**

«... قال رسول اللَّه ﷺ: «**زيّنوا القرآن بأصواتكم**»:

**قلت**: معناه: زينوا أصواتكم بالقرآن، فكذا فسّره غير واحد من أئمة الحديث، وزعموا أنه من باب المقلوب، كما قالوا: عُرِضَتْ الناقة علىٰ الحوض؛ أي: عرضت الحوض علىٰ الناقة، وكقولهم: إذا طلعت الشعرىٰ واستوىٰ العود علىٰ الحرباء؛ أي: استوىٰ الحرباء علىٰ العود، وكقول الشاعر:

**وتركت خيلًا لا هوادة بينها وتستقىٰ الرماح بالضياطرة الحمر**

وإنما هو تشقىٰ الضياطرة بالرماح [والضياطرة: جمع ضيطر، وهو الضخم العظيم «مقاييس اللغة» (٣/ ٣٦١)، ثم روىٰ الخطابي بسنده:]

وأخبرنا ابن الأعرابي: حدثنا عباس الدّوري حدثينا يحيىٰ بن معين حدثنا

أبو قطن عن شعبة قال: نهاني أيوب أن أحدث: زيّنوا القرآن بأصواتكم.

قلت: ورواه معمر عن منصور عن طلحة فقدّم الأصوات علىٰ القرآن وهو الصحيح؛ أخبرناه محمد بن هاشم حدثنا الدبري عن عبد الرزّاق أخبرنا معمر عن منصور عن طلحة عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**زيّنوا أصواتكم بالقرآن**». والمعنىٰ: اشغلوا أصواتكم بالقرآن والهجوا بقراءته واتخذوه شعارًا وزينة». اهـ

وقال أبو الطيب في «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (٣/ ٢١٤) نفس ما قاله الخطابي في «المعالم» اختصارًا، وعزاه للخطابي.

وكذلك فعل السندي في «شرح سنن ابن ماجه» (٢/ ١٣١، ١٣٢)، ولكن من غير عزو للخطابيّ، والخطّابي توفِّي (٣٨٨هـ).

وروىٰ البخاري في «صحيحه» (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال «**ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآن**»، وزاد غيره: «**يجهر به**».

**قال الخطابي في «معالم السنن» (١/ ٢٥٢، ٢٥٣) عند نفس الحديث (٣٨٣) من رواية أبي داود في «السنن» (١٤٦٦) عند شرحه:**

«قلت: هذا يتأوّل -أي: يُفسّر- علىٰ وجوه: أحدها: تحسين الصوت، والوجه الثاني: الاستغناء بالقرآن عن غيره، وإليه ذهب سفيان بن عيينة، ويقال: تغنّىٰ الرجل بمعنىٰ استغنىٰ، قال الأعشىٰ:

وكنت امرأً زَمَنًا بالعراق عفيف المنازل طويل التغنِّي

أي: الاستغناء، وفيه وجه ثالث، قاله ابن الأعرابي صاحبنا، أخبرني إبراهيم بن فراس قال: سألت ابن الأعرابي عن هذا فقال: إن العرب كانت تتغنّىٰ

بالركبان إذا ركبت الإبل وإذا جلست بالأفنية وعلىٰ أكثر أحوالها، فلما نزل القرآن أحب النبيّ ﷺ أن يكون القرآن هجّيراهم، مكان التغنّي بالركبان». اهـ

وقوله: هِجّيراهم: يعني: العادة والدَّأب والديدن قاله ابن الأثير في «النهاية» (٥/ ٢١٤).

● **نكتة المسألة وفقهها:**

**قلت**: وتكلم في المسألة الإمام القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢٩-٣٥) في مقدمة كتابه تحت: (باب كيفية التلاوة لكتاب اللَّه تعالىٰ وما يكره منها وما يحرم)، فذكر ما قاله الخطابي في «معالم السنن»، واختار رواية: «**زيّنوا أصواتكم بالقرآن**»، وفي رواية: «**حسّنوا أصواتكم بالقرآن**»، ثم قال:

«ومعاذ اللَّه أن يُتَأوَّل علىٰ رسول اللَّه ﷺ أن يقول: إن القرآن يُزَيَّن بالأصوات أو غيرها؛ فمن تأوّل هذا فقد واقع أمرًا عظيمًا؛ أنْ يُحْوِجَ القرآن إلىٰ من يزيّنه، وهو النور، والضياء، والزَّيْن الأعلىٰ لمن ألبس بهجته واستنار بضيائه». اهـ

ثم ربط حديث الباب بآخر فقال (١/ ٣١، ٣٢):

«قلت: وإلىٰ هذا المعنىٰ يرجع قوله عليه السلام: «**ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآن**» [رواه البخاري (٧٥٢٧)] أي: ليس منا من لم يُحسّن صوته بالقرآن، وإليه يرجع قول أبي موسىٰ للنبي ﷺ: إني لو علمت أنك تسمع قراءتي لحسنت صوتي بالقرآن، وزيّنته ورتلته، وحبّرته لك تحبيرًا، والتحبير: التزيين والتحسين [وهو حديث البخاري (٥٠٤٨) قال ﷺ: «**يا أبا موسىٰ لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**»] . . . وقيل: إن معنىٰ يتغنّىٰ بالقرآن: يتحزّن به؛ أي: يظهر علىٰ قارئه الحزن الذي هو ضد السرور عند قراءته وتلاوته، وليس من الغنية؛ لأنه لو كان من الغنية لقال: يتغانَىٰ به، ولم يقل: يتغنّىٰ به، ذهب إلىٰ هذا جماعة من العلماء: منهم الإمام

أبو محمد بن حبان البُسْتي [الإمام الحافظ صاحب الصحيح]، واحتجّوا بما رواه مطرّف بن عبد اللَّه الشخير عن أبيه قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ يصلي ولصدره أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء» [رواه أبو داود في «سننه (٨٩٩)، وابن خزيمة (٩٠٠) في «صحيحه»]، والأزيز: بزايين: صوت الرعد وغليان القدر. قالوا: ففي هذا الخبر بيان واضح علىٰ أن المراد بالحديث التحزّن، وعضدوا هذا أيضًا بما رواه الأئمة عن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال النبيّ ﷺ: «**اقرأ عليَّ**»، فقرأت عليه سورة النساء حتىٰ بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان» [رواه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠)]». اهـ

**قلت**: وسرّ المسألة ونكتتها: فيما رواه الخطابي بسنده -كما مرَّ آنفًا في «معالم السنن»- قال: «وأخبرنا ابن الأعرابي حدثنا عباس الدّوري حدثنا يحيىٰ بن معين حدثنا أبو قطن عن شعبة قال: «نهاني أيوب السختياني أن أحدّث: «**زينوا أصواتكم بالقرآن**»، ثم قال القرطبي: «ومعاذ اللَّه أن يُتأول علىٰ رسول اللَّه ﷺ أن يقول: إن القرآن يُزيّن بالأصوات وغيرها، فمن تأول هذا فقد واقع أمرًا عظيمًا أن يُحْوِج القرآن إلىٰ من يزيّنه وهو النور والضياء».

فهذا الحديث في مسألتنا له روايتان وهما ثابتتان صحيحتان، وقد فُسّرت الرواية الأولىٰ: «**زيّنوا القرآن بأصواتكم**» بالرواية الثانية: «**زينوا أصواتكم بالقرآن**»، ولهذا نهىٰ أيوبُ شُعبةَ عن التحديث بالرواية الأولىٰ حتىٰ لا يُوقع في أمر عظيم، وهو وصف القرآن بالنقص تعالىٰ اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصّلت: ٤١، ٤٢].

وإنما تناولت هذا الحديث في هذه المقالة لشهرته؛ وبيان المراد من معناه، وحسن فهمه، ومعرفة تأويله، حتىٰ لا يُكذّب اللَّه ورسوله فيسوء فقه الحديث وفهمه، وفساد الاستنباط، وخلل الاعتقاد.

وذلك لأن جُلّ روايات الحديث في دواوين السنة علىٰ الرواية المشهورة، ولا يعرف الرواية الثانية إلا القليل، ومن هنا حدث اللّبس في فهم الحديث؛ فتعيّن البيان، إنما المراد هو: «**زيّنوا أصواتكم بالقرآن**».

كذلك فقه حديث البخاري (٧٥٢٧): «**ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن**»، وبيان معناه، من ناحية الصلة بين حديث الباب وهذا الحديث، وما المراد بمعنىٰ التغنّي بالقرآن، فليس هو بالتلحين الموسيقي الغنائي الذي هو من أسوأ البدع -كما مرّ آنفًا- حتىٰ رأيت إمامًا من دولة إفريقية يقرأ أواخر سورة الحشر، علىٰ لحن أغنية مشهورة جدًّا، فرأيته في فيديو أرسله لي أحد الطلبة، لا كأنه في مسجد، بل علىٰ مسرح عروس يتغنَّىٰ بالفلكور الشعبي.

**قال الإمام القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٠، ٣٣):**

«وروىٰ ابن القاسم عن مالك أنه سئل عن الألحان في الصلاة فقال: لا يعجبني؛ إنما هو غناء يتغنَّون به ليأخذوا عليه الدراهم.

وأجازت طائفة رفع الصوت في القرآن والتطريب به، وذلك لأنه إذا حسَّن الصوت به كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب، واحتجوا بقوله ﷺ: «**زيّنوا القرآن بأصواتكم**»، وبقوله: «**ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن**»، قال علماؤنا: فإنه يُعلم علىٰ القطع والبتات، من أن قراءة القرآن بلغتنا متواترة عن كافة المشايخ جيلًا فجيلًا إلىٰ العصر الكريم إلىٰ رسول اللَّه ﷺ، وليس فيها تلحين ولا تطريب، مع كثرة المتعمّقين في مخارج الحروف، وفي المدّ والإدغام والإظهار وغير ذلك

من كيفية القراءات.

ثم إنّ في الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز، ومدّ ما ليس بممدود، فترجع الألف الواحدة ألفات، والواو الواحدة واوات، والشبهة الواحدة شبهات، فيؤدّي ذلك إلىٰ زيادة في القرآن وذلك ممنوع، وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات، فإن زاد الأمر علىٰ ذلك حتىٰ لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق، كما يفعل القُرَّاء أمام الجنائز، ويأخذون علىٰ ذلك الأجور والجوائز، ضل سعيهم وخاب عملهم، فيستحلّون بذلك تغيير كتاب اللَّه، ويهونون علىٰ أنفسهم الاجتراء علىٰ اللَّه، بأن يزيدوا في تنزيله ما ليس فيه؛ جهلًا بدينهم، ومروقًا عن سنّة نبيّهم، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، فهم في غيّهم يترددون، وبكتاب اللَّه يلعبون، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون! لكن قد أخبر الصادق المصدوق أن ذلك يكون، فكان كما أخبر ﷺ». اهـ

روىٰ أحمد في «مسنده» (١٥٤١٨) عن عبد الرحمن بن شبل قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**اقرؤوا القرآن ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به**».

والحديث قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٦٧): «رجاله ثقات»، وقال الحافظ في «فتح الباري» (٩/ ١٠١): «سنده قوي»، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٢٠٣١)، وصححه، ووافقه الذهبي.

ولا يعترض معترض بعد هذا الحديث الأخير؛ لقوّته وصراحة لفظه ووضوح ظاهره، الذي نهىٰ فيه ﷺ عن التكسّب المحرّم بالقرآن علىٰ غير وجهه؛ لأن مراد الحديث: لا تشتروا بآيات اللَّه ثمنًا قليلًا فتأكلون الحرام بأسوأ البدع، كما قال المُناوي في «فيض القدير».

ووجه اعتراضهم قد يكون في مثل قوله ﷺ: «**إن أحقّ ما أخذتم عليه أجرًا كتاب اللَّه**» روىٰ البخاري (٥٧٣٧) في «صحيحه»، فلا حرج في أخذ المال علىٰ كتاب اللَّه إن كان علىٰ الوجه المباح الحلال، مثل أخذ المال علىٰ الرقية، وهذا بنص حديث البخاري وألفاظه من الرواة كما في سياق الحديث، ثم أخذ الأصوليون من هذا الحديث بقاعدة: «**العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**»، وهي قاعدة متفق عليها عند الصحابة وعند الأصوليين -كما فصّلت ذلك من قبل أكثر من مرة- والعموم هنا يكون علىٰ الوجوه المباحة الحلال، كتعليم الصبيان قراءة القرآن، والتجويد، والإمامة بالناس، وتصنيف الكتب وبيعها من شتىٰ العلوم القرآنية والنبوية من الكتاب والسنة، التي هي تبيين الكتاب وتفهّمه، أما الوجوه المحرمة فهي لا تدخل في العموم، بل خُصّصت بالنهي وعدم الجواز، وحدُّها: كل ما كان بدعة ومعصية، كما في بدع الجنائز علىٰ كثرتها وما شابه ذلك من المخالفات عن سبيل اللَّه ورسوله ﷺ، فكانت هذه المقالة صورة من هذه المخالفات، قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، وقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

واللَّه من وراء القصد وهو يهدي السبيل، والحمد للَّه أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

وصلىٰ اللَّه علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

**بلَّغه**

**الدكتور ابن الكيَّال**